

الفاطمية أم المهديوات المغربية والامتحان العسير

الدكتور لقبال موسى
أستاذ التاريخ الاسلامي والعصور الوسطى
معهد التاريخ جامعة الجزائر

■ في خضم نضال آل البيت، وشيعتهم من أجل الوصول الى الامامة الكبرى أو خلافة المسلمين، برزت عدة اتجاهات متطرفة، وأراء مغالية لعل من بين أظهرها، ان لم يكن من أقدمها فكرة المهديوية : وتدور حول بعث الآمال في ظهور حاكم من آل البيت يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، ويتولى إصلاح أحوال المجتمع الاسلامي، وقيادته الدينية والدينية ارثا عن الرسول ﷺ، وعن ابن عمه علي بن أبي طالب.

وأقدم صورة للمهديوية، هي التي ظهرت في منطقة الاحساء (في البحرين). والتف حولها أو ادعاها من يسمون في التاريخ الاسلامي وفي مسيرة الحياة المذهبية للمسلمين، القرامطة، وهم من طائفة الشعية الاسماعيلية الذين ينتسب اليهم الفاطميون.

وبحركة الفاطمين الدعائية، في المشرق، وبامتدادها النشيط في بلاد المغرب على يد أقدر الدعاة وأكفأهم أبي عهد الله المحتسب، ذلك الامتداد الذي توج بالنجاح المدهش في إسقاط الأنظمة السياسية في بلاد المغرب الاسلامي، تم تحويل الحركة الى نظام عتيد جامع شمل بلاد المغرب كلها، هو نظام الخلافة، أو امامة المسلمين أو قل هو المهديوية التاريخية الأولى في بلاد المغرب الاسلامي، الذي كان يتبع حتى الآن وفي معظمه نفوذ العباسيين الروحي، ويستظل بظلمهم السياسي.

ان اعلان خلافة جديدة باسم الخلافة الفاطمية في رقادة (تونس) في 21 ربيع الآخر 297 هـ / ديسمبر 908 م ، كان مفاجأة مذهلة للجماهير، وأشد من ذلك صدور أوامرا من أول خلفاء الفاطميين في بلاد المغرب : عبيد الله ، الى خطباء المساجد في القيروان ورقادة ، بأن يدعوا له يوم الجمعة بلقب جديد ، غير أمير المؤمنين ، انه لقب : المهدي ، بما يعنيه من معاني سياسية وروحية ، كما يفهمها أهل البيت وشيعتهم في كل الأقطار .

وبذلك ظهرت من الآن ، وفي بلاد المغرب مهدويته جديدة ، أو التاريخية الأولى ، أو أم مهدوياته وهو حدث فاصل ومفروق لم تألفه المنطقة من قبل ، ولم تستسغه جماهيرها وخاصتها الذين كانوا لا يعترفون الا بخلافة واحدة شرعية عالمية هي خلافة العباسيين الهاشميين أبناء عمومة العلويين .

ولقد استقر الرأي على وحدة الخلافة ، التي هي رمز لوحدة النظام الاجتماعي في اطار دار الاسلام .

ولهذا ، ومراعاة لعواطف الجماهير ، وآراء الفقهاء لم يدع الأمويون في الأندلس بعد اقتطاعهم له لقب الخلافة واكتفوا بلقب الأمير ابن الخلائف ، حتى ادعاهم الفاطميون ونازعهم أنفسهم للسيطرة على شبه جزيرة الأندلس .

ان هذا التطور الذي حصل في بلاد المغرب ، غير الأندلس التي ستصبح لها خلافتها ، يعني انفراد هذه البلاد بنظامها السياسي الجامع على شكل خلافة ، يقودها آل البيت العلويون ، وهم هنا الاسماعيلية الفاطميون ، أصحاب الحق الشرعي في امامة المسلمين جميعا ارثا عن جدهم وصي رسول الله ﷺ ، وهذا كله الكناية بالعباسيين ، ومقامستهم النفوذ أولا ، قبل الاستحواذ على ما بقي لهم منه في المشرق الاسلامي .

ان مسؤولية عبيد الله المهدي الجديد ، مسؤولية خطيرة ، في هذا الصدع الذي أوجده في جسم الأمة الاسلامية ، وقلده فيه أمويو الاندلس وغيرهم . حتى أضحت صورة العالم الاسلامي ممزقة بين ثلاث خلافات اسلامية متنازعة محتربة .

ان الرغبة في التفرد بالنفوذ وبالسُلطان ظهرت عند المهدي الجديد ، في المجال الخارجي ضد الكيانات الأخرى ، كما ظهرت في المجال الداخلي ، ضد انصاره وكبير دعاته وباني مجده الداعي أبي عبد الله المحتسب .

حتى لكأن شعورا بالغرابة ، وبالضعف ، بالقياس الى داعيته المعروف بالمنطقة وبين قبائلها البرنسية ، كتامة ، وعجيسة وصنهاجة ، وزواوة ، هو الذي دفعه الى جملة من الاجراءات الاستعجالية ذات الطابع الوقائي ، التي صيرته محل شك وريبة ، ممن أسسوا له

القياد بالأمس عن طوعية واختيار، وعن حب وتجلة واکرام، وفي مقدمتهم كبير دعاة آل البيت وباني الدولة الجديدة، ثم زعماء الحرب والسياسة، وأولو الوجاهة والرأي من كتامة عصبية الداعي، وأنصاره المخلصين.

فما هي هذه الاجراءات ؟ يأتي في مقدمتها :

1 - ابعاد جند كتامة تدريجيا، عن الحياة العسكرية التي الفوها، تحت غطاء توفير سبل النعيم والراحة لهم بعد ما اصابهم من اتعاب، فقد اعطاهم الأموال والدور، والجواري، وهذا لم يكن محل رضا الداعي، الذي خاف على انحلال عصبية الدولة وذهاب ربحها، وهي ما زالت بعد غضة سهلة الكسر.

2 - ثم التمهيد لابعاد العناصر القيادية المؤسسة للدولة من بين القادة المغاربة لصلتهم الحميمة بالداعي ابي عبد الله، والعمل من جهة اخرى على تقريب وجوه جديدة للنظام ترتبط بالمهدي الجديد، وتدين له وحده بالولاء وبالترقية.

3 - وهذا التصرف قصد به أن يؤثر سلبا على نفوذ الداعي وعلى هيئته في نظر انصاره، وفي نظر العناصر الجديدة التي لا ترتبط معه بأي رباط عاطفي أو مصلحي.

4 - وأدخل المهدي في ديوان الجند وفي الحياة العسكرية عناصر جديدة، من العتقاء، وأبناء العبيد، ليقع الاعتماد عليهم، وهذا للحد من نفوذ المغاربة الذين رباهم الداعي على نهج خاص.

5 - واعتمد المهدي الجديد، على نظام صارم وخفي لمراقبة حركات داعيه وأنصاره من طرف بعض الغاضبين والطموحين للمناصب، مثل عروبة بن يوسف الملوسي، الذي كان يغار من ابن عصبته ابي زاكي تمام بن معارك الأجاني، والاثنان من قادة كتامة التاريخيين.

والذي يلاحظ ان الداعي، كان حتى هذا الوقت زاهدا في السلطة وفي حياة النعيم، لكنه فوجيء بهذه الاجراءات التي همشته، كما أساءت الى عصبية الدولة أيضا. وكان هذا بداية للاحتكاك والمواجهة.

لقد تدخل الداعي لاصلاح الوضع بناء على خبرته الطويلة بأخلاق المغاربة، وبطبيعة بلادهم ومجتمعهم، فصدم المهدي الجديد، بتدخله وباعتراضه على نهجه الجديد. ولقد استمر المهدي في خطته.. رافضا نصيحة أخلص دعائه، وهذا أظهره في مظهر المهدي المستبد بالرأي.

6 - واقتضى النهج الجديد، للمهدي الجديد، التعامل مع وجوه المغاربة، وزعماء كتامة البارزين مباشرة أي دون وساطة أو علم الداعي أبي عبد الله. مما يشير الى بداية التنكر والحدود، الذي يسبق في مثل هذه الحالات التهيئة للامر الخطير، انه تقليد الاطافر وتصفية التاريخيين.

وممارسة المهدي لسلطاته في التولية والعزل، وفي التقريب لأناس، والابعاد لآخرين دون مشورة الداعي واركان المهديوية الجديدة، أساءت الى الصورة المثالية التي كان يحملها هؤلاء وعصبيتهم، عن امام الزمان والمهدي المنتظر من آل الرسول ﷺ تلك الصورة التي ظل الداعي طويلا، يلمعها، ويرسخها في أعين القوم وفي أذهانهم. وأركانها : الطهر، والعفاف، والزهدي، والعدل، والتزام احكام الشريعة، والتواضع، وبث روح الأخوة والألفة بين أتباعه ودعائه.

7 - وعلى حين ظل الداعي ملتزما بمنهج زهدي قاس، انغمس المهدي الجديد في حياة البذخ والنعيم، والتمتع بالجواري في القصور الفخمة التي شادها امراء بني الأغلب الظالمون لرعيته.

من الواضح ان عقيدة الداعي، في المهدي المنتظر من آل الرسول ﷺ بقيت عقيدة راسخة، رسوخ عاطفة الحب والتقدير والتبجيل لآل الرسول ﷺ من فاطمة وابنها الحسين، ومنهم هذا المهدي الجديد، رغم انه لم يسبق لهما أن تعارفا من قبل، نظرا لمبدأ أي الكتمان والتقية عند الشيعة الاسماعيلية. ولم يكن المهدي هو المسؤول عن ارسال أبي عبد الله الى بلاد المغرب، وانما ارسله جده الحسين ثم ثبته ابوه محمد الحبيب بعد وفاة جده.

والمحصلة : ان الداعي أبا عبد الله، لم يرق الى تصرفاته أو اخلاصه أو اخلاقه أدنى شك أو أي تغيير مضاد من شأنه الاساءة الى المهديوية الجديدة، وهذا على عكس اخيه أبي العباس وثلة من الانصار، الذين دأبوا على الخوض في حياة المهدي، وفي تصرفاته الشاذة، وعلى تعنيف الداعي على موقفه السلبي منه حتى الآن، والاقرب الى الظن ان المهدي الجديد كان يراقب الموضوع المضطرب في معسكر الداعي بواسطة عيون بثهم وسط الانصار. ومنهم فيما يبدو عروبة بين يوسف، كما اشرنا الذي اعتقد انه مبعود عن المركز الاول عند الداعي، بينما يظفر ابن عصبته ابو زكريا بأرفع منزلة عنده وخيل اليه أنه يمكن له أن يعوض ذلك بالتقرب من المهدي ولو بالانتقام من عصبته.

وعندما وصلت التعبئة النفسية ذروتها ضد المهدي الجديد في رقادة كان ضمن المخططين لامتحان المهدي، عروبة نفسه مع أبي زكريا، وشيخ المشائخ، والداعي أبي عبد الله، وقد ضبطت خطة امتحانه في اجتماع سري بمكان قرب تنس في ذي الحجة 298 هـ.

وأساس هذه الخطة : عرض المهدي الجديد على مواصفات المهدي المنتظر من آل

الرسول ﷺ فإذا ظهر زيفه أزيح عن مكانه بالقوة وتعاهد الجميع ، على السرية وعلى السرعة في التنفيذ عند العودة من المهمة .

فمن الذي اخبر المهدي بالخطة ؟ ومن الذي جعله يحتجب ويسلك سبيل الحذر الشديد من داعيه وأنصاره ويراقب تحركاتهم وتصرفاتهم عن كثب ؟ انه عروبة من دون ريب .

ولم يطل انتظار المهدي ، حتى جابه احد المخططين وهو شيخ المشائخ بقوله « ان كنت المهدي فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك » .

عندئذ تحقق من صدق الخبر ، والمخبر ، فتصرف بسرعة ، وبحسم ، حتى لا ينهار النظام الجديد ، وتصبح مهدويته أثرا بعد عين . فأمر بقتل شيخ المشائخ ، وكلف عروبة بقتل الداعي ، وأخيه ابي العباس ، فنفذ فيهما معا ، وهذا أبلغ دليل على تورطه ومخاطرته على الداعي وعلى أبناء عصبيته لقاء وعد بمنصب رفيع . ونكل المهدي ، بكل الزعامات الكتامية المشبوهة ، وبكل اصدقاء الداعي وأقاربهم وحتى حلفائهم ايضا .

وهكذا اصبحت مهدوية الفاطميين منذ بدايتها دموية عنيفة وهي صفة لازمتها حتى آخر ايامها في بلاد المغرب الاسلامي .

ولشعور المهدي الجديد بضخامة الحادث الذي كانت له اصدقاء مدوية وبعيدة في أرجاء المغرب والمشرق معا ، بين انصار الدولة واعدائها ، اندفع في تبريز الحادث على أسس دينية ومذهبية فحواها كما جاء في رسالته الى دعاة وانصاره بالمشرق : « ان اباعد الله الداعي ، زاغ عن الطريق ، وحاد عن طاعة الامام المعصوم من آل البيت ، فظهرته بالسيف » .

لم يكتف المهدي بهذا الاجراء ، بل اتخذ جملة من الاحتياطات الامنية ، منها الاحتجاب عن الناس ، وتشديد الرقابة على حواضر الدولة خاصة رقادة والقيروان اللتين كانتا توجد فيهما كثافة معتبرة من الكتاميين انصار الداعي المخلصين .

ومن هؤلاء من ترك افريقية والتجأ الى اقليم كتامة وألّهب في جنباته عدة انتفاضات احتجاجا على قتل الداعي وأخيه وزعماء المنطقة ، ووصلت انتفاضتهم الى درجة التطرف الشديد عندما ادعوا ان ابا عبد الله حي ، لم يمت وأنه سيعود وهذا ما يعرف في تاريخ الحركات المتطرفة بمبدأ الرجعة الذي قال به الكيسانية في محمد بن الحنفية ، أحد أبناء علي من غير فاطمة الزهراء .

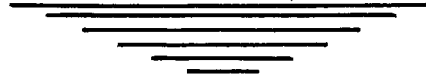
وأقدموا على خطوة ثانية اشد تطرفا ، وهي خلع المهدي ، والتشجيع عليه ومبايعة مهدي آخر من جنسهم ؛ وهكذا نجد أنفسنا امام مهدوية محلية جديدة ، في اقليم كتامة . وكأن الكتاميين وحلفاءهم ، وجدوها فرصة ثمينة لاعطاء منطقتهم ما تستحقه من تشريف حرما

منه قبل؛ المهدي الجديد عندما انصرف عن منطقتهم الى رقادة، ثم المهديّة، لرغبته في العودة الى بيئته المشرقية عندما تنهيا ظروفها الموضوعية .

حقا لقد راود الكتامين وحلفاءهم، هذا الحلم الجميل، واستبد بهم غضب شديد عندما رفض المهدي البقاء في منطقتهم الجبلية المنغزلة . وساءهم اكثر، اخذه للأموال المخزونة في بلادهم وللعناصر الشابة من بني جلدتهم .

بحيث كانت اثار المهديّة على قبائل بلاد المغرب كلها اثارا سلبية، مفرقة ومدمرة . فقد أثقلتها بالمغارم وألهمت جنباتها بالحروف وبالفتن القبلية والمذهبية، كما قضت على حظوظها في الوحدة وفي التنمية، وذلك عندما كرسّت خيرة عناصرها للجندية، وللخدمة في القصور . . . وأخيرا عندما فتحت لها المجال واسعا، للهجرة الجماعية الى مصر وبلاد الشام خدمة لأغراضها هنا وهناك . . . أي حتى يبقى نفوذها مستمرا . . . وسطوتها القاهرة في المغرب وفي بلاد المشرق أيضا . . .

والخلاصة : ان المهديّة الفاطمية، تعتبر أم مهدويات بلاد المغرب، وان المهديّة من أثرها أصبحت طابع العصر، وظلت كذلك لفترة طويلة عبر تاريخ المغرب الاسلامي تأكل أخضره، ويابسّه، وتفنّي قواه وحيويته في متاهات ودروب صعبة وغامضة .



انجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية بن عكنون - الجزائر

الملخص:

تعتبر المهدوية الفاطمية أماً للمهدويات في بلاد المغرب، وميّزت هذا الأخير لفترات طويلة، وإذا كانت تلك الحركة فكرتها مشرقية إلا أنها ولدت مغربية حيث ترعرعت واشتد سوقها وتحولت إلى نظام للخلافة جامع لكل بلاد المغرب الإسلامي أو إلى إمامة المسلمين والذي يسمى بالمهدوية حيث تم التراجع عن مصطلح أمير المؤمنين واستبدل بالمهدي نسبة لأمر أول الخلفاء الفاطميين عبيد الله المهدي، وهذا أمر غريب بالنسبة لسكان بلاد المغرب الذين تعودوا على التبعية الروحية للخلفاء العباسيين الهاشميين، فانفصلت بلاد المغرب وأصبحت في يد العلويين وهم من الفاطميين، وكل ذلك زاد من تشرذم العالم الإسلامي بين ثلاث خلافات إسلامية متنازعة فيما بينها، وفي بلاد المغرب ظهرت حياة جديدة مع المهدي حسب نهجه وخطته التي رسمها، ولكن تلك السياسة كانت آثارها سلبية على السكان فقد فرقت ودمرت، وقضت على الوحدة.

الكلمات المفتاحية: عبيد الله المهدي، العلويون، الشيعة، الفاطميون.